

الفصل: الرابع

وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و20

الأستاذة: محمد حبيدة

المحاضرة رقم: 2

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2021-2020
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و20
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: محمد حبيدة
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 2

نابوليون: من الهامش إلى المركز

يعد نابوليون (1769-1821) من الشخصيات الكبرى التي أثرت في مجرى تاريخ القرن التاسع عشر، باعتباره فاعلا سياسيا كبيرا. في الواقع، لا يتعلق الأمر بتاريخ سياسي تقليدي يضع في الواجهة الأشخاص وتفاصيل الأحداث، ولا بتاريخ بنيوي يتجاهل دور الفرد في النسيج التاريخي. في دراسة هامة تحت عنوان "هل يأخذ التاريخ الفاعلين مأخذ الجذء؟" صادرة عام 1995، كان المؤرخ الفرنسي بيرنار لوبوتي قد ناقش مجموعة من الأعمال التي غيّبت دور الأفراد، وأكد على ضرورة توسيع الرؤية وفهم الواقع التاريخي فهما تتعدد فيه مستويات التحليل، لأن الوقائع يساهم في صنعها فاعلون اجتماعيون وسياسيون، كلٌّ من موقعه في نسقٍ من التمفصلات والعلاقات. ومعنى ذلك أن مجريات كثيرة تظهر فيها قدرة الأفراد على الفعل والتغيير، لأن هؤلاء، كما يقول هذا المؤرخ "ليسوا كرات محبوسة داخل صناديق"، وإنما فاعلين سياسيين واجتماعيين تقاطعت أعمالهم مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حملتهم للعب أدوار تاريخية طلائعية. هذا ما ينطبق على نابوليون الذي حملته أحداث الثورة الفرنسية وملابساتها، وقد توفر على مؤهلات فوق العادة، ليسير بفرنسا وأوروبا على نحو عام بالاتجاه الذي سنتحدث عنه. فمن أجاكسيو بجزيرة كورسيكا¹ في جنوب فرنسا إلى العاصمة باريس، وإلى فيينا وبرلين وموسكو، استطاع هذا الرجل القادم من الجنوب المطل على البحر الأبيض المتوسط أن يفرض رؤيته السياسية والقانونية على الجميع، وأن "يملك العالم"، وفق العبارة الواردة في "مذكرات ما وراء القبر" للأديب الفرنسي شاتوبريان.

عام 1921، وبمناسبة مرور مائة سنة على وفاته، تعددت حوله الشهادات والدراسات، في شكل مؤلفات وأعداد خاصة في مجلات متخصصة، بدءاً بالإشادة التي أدلى بها المارشال فيرديناند فوش المنتصر على ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وهو ينحني أمام قبر نابوليون في محفل رسمي مهيب، ومرروا بمختلف المقالات الصادرة هنا وهناك، وخاصة "مجلة الدراسات النابوليونية"، وانتهاءً بكتاب المؤرخ والأكاديمي جورج لاکور غايت الذي أُلّف، في السنة المذكورة، كتابا تحت عنوان "نابوليون" قدم فيه حصيلة ما كُتب عنه معززا بصور فريدة ونادرة.

¹ كانت فرنسا قد انتزعت كورسيكا من جمهورية جنوة عام 1768، أي سنة واحدة قبل ميلاد نابوليون.

كانت اللحظة مواتية، آنذاك، للحدث عن نابوليون ليس فقط من زاوية أعماله السياسية والقانونية والعسكرية، بل أيضا من جانب حياته اليومية وعلاقاته مع المقربين منه، عائليا ومهنيا، فصدرت كتب ذات عناوين معبرة: "نابوليون: الوجه الحقيقي"، "نابوليون بأعين معاصريه"، أو أيضا "نابوليون الحميمي" لأرتير ليفي. يرسم هذا المؤرخ صورة دقيقة عن نابوليون: بساطة حركاته ولغته، حرارة علاقاته مع أسرته، طريقة اشتغاله في البيت وفي العمل، حرصه الشديد على الاستخبار على كل كبيرة وصغيرة، صرامته في تناول الأمور وإصدار القرارات، بعد نظره. في فصل تحت عنوان "صوت التاريخ"، ينتقل أرتير ليفي من الحياة الخاصة إلى الحياة العامة بنظرة تركيبية بديعة تضع القارئ في صورة يظهر فيها نابوليون على رأس أوروبا: استتباب الأمن في فرنسا عقب الثورة الفرنسية، الفوز على الجيش النمساوي، السيطرة على شمال إيطاليا، احتلال ألمانيا وتغيير وجهها الترابي والقانوني، العلاقات مع الإسكندر الأول، قيصر روسيا، الدخول إلى موسكو، وأيضا صورة "هذا الغول الكورسيكي (نسبة لجزيرة كورسيكا) الذي لم يملّ من الغزو، هذا المدمر الرهيب للبشر، هذا الأنانى النابغة الذي ضحى بملايين البشر لتلبية رغباته الدموية وتحقيق تصورات الوهمية".

تكون نابوليون² تكوينا عسكريا في جنوب فرنسا ما بين 1779 و1784، ثم واصل هذا التكوين في باريس، حيث وسّع مداركه في الكارتوغرافيا، وتخصّص في المدفعية، وتدرج في المراتب العسكرية. وعندما اندلعت الثورة الفرنسية سنة 1789، وعمره لا يتجاوز العشرين سنة، كان قد تحصّل على رتبة ملازم. لكنه ما لبث أن ارتقى إلى رتبة عقيد. لكنه لم يقتصر على ما هو عسكري، إذ كان يقرأ كثيرا كتب التاريخ بفضل أستاذ للتاريخ كان قد حبّب إليه هذه المادة. وتذكر كتب السيرة التي ألفت عن نابوليون أن هذا الأستاذ كان قد قال ذات مرة: "هذا الشاب الكورسيكي الطبع والوطني المنزع قد يذهب بعيدا لو سمحت له الظروف بذلك" (إريك ديلموت)

وكانت ملابسات الثورة الفرنسية، التي استمرت من 1789 إلى 1794، المرتبطة بالتخلص من لويس السادس عشر في مرحلة أولى (1793) ومن رويسيار في مرحلة ثانية (1794)، هي التي مكنته من البروز كشخصية فاعلة في مجرى الأحداث. في بداية الأمر، كان نابوليون قد أبان عن كفاءته العسكرية لما قاد حصارا على مدينة تولون في الجنوب لتحريرها من الإنجليز الذين كانوا قد هجموا على فرنسا من كل الجهات قصد إعادة النظام الملكي إلى البلاد. كان ذلك في دجنبر 1793، في وقت كان فيه رويسيار هو سيد فرنسا بدون منازع. بعد ذلك، عقب سقوط هذا الأخير وتنامي التيار المعادي للثورة، كلّفه بول باراس، رئيس حكومة الإدارة

² Napoléon Bonaparte: الاسم الأصل كان ذا نفحة إيطالية (نابوليوني بونابارتي/Napoléone Buonaparte)

(الديريكتور / Directoire)، بسحق التمرد الموالي للويس السادس عشر، الممول من طرف بريطانيا العظمى. وقد استطاع نابوليون فعلا سحق المتمردين الذين كانوا يرغبون في الاستيلاء على مقر البرلمان. وكان انتصاره في هذه العملية، في أكتوبر 1795، هو الذي أكسبه ثقة البرلمانيين وأهله للارتقاء إلى رتبة جنرال، ثم إلى قائد عام للجيش الفرنسي، ليسطع نجمه في سماء فرنسا. ثم بعد ذلك، عقب عودته من حملته العسكرية على مصر (1798-1801) في حريف 1799، وفي خضم الصراع بين التيار الملكي والتيار اليعقوبي، استطاع نابوليون إزاحة حكومة الإدارة المدنية (الديريكتور) وتنصيب نفسه حاكما للبلاد من درجة "قنصل أول" (premier consul). هذا ما يسمى في تاريخ فرنسا بـ "عهد القنصلية" (1799-1804)، والذي أعقبه عهد الإمبراطورية لما ولى نفسه إمبراطورا ابتداءً من 2 دجنبر 1804 بكاثيدرائية نوترودام بباريس بحضور البابا بيوس السابع (Pie VII).